الندم بين كامو وسارتر

بقلم عبد الفتاح الديدي

— ٢ —

عود على بدء :

مرة اخرى نريد ان نناقش الاساس الذي تقوم عليه فكرة هـذا البحث . لا اود ان استرسل مع التحليل دون ان اضع النقط فـوق الحروف ودون ان اثبت مـن كل نقط الارتكـاز الضرورية لتذليل الصعوبات في مثل هذه الموضوعـات . ذلك ان مثل هـذه المعالجة لموضوعات الفكر الادبي غير مألوفة لدينا في اللغة العربية . وهي فضلا عن ذلك تلقى صعوبة في القبول والاستساغة لدى الكثيرين من بيننا . بل لا تلقى هذه الموضوعات الفهـم اللازم لاتصالهـا بأعلى مستويـات الفكر الادبي المعاصر من ناحية ولارتباطها بمعنويات جديدة من ناحية اخـرى .

لا شك في ان الوجودية قد عرفت في الشرق العربي منـذ وقت طويل . لكن لا يلبث المراقب الادبي ان يحس بظهور نزعـات ترمي الى حماية نفسها اكثر مما تحاول العمل من اجل خدمة الفلسفة والفكر . ومن ثم اختفت كل معالم الاصالة الحقيقية التي تحمي سيـاج الفكر الحر وترمي الى تطور المشارب العقلية السليمة التي تنتمي بالفعـل الى دائرة الفلسفة . ولا بد بالتالي من ان نعمل جادين على اعـادة تعويد القارىء العربي على استمرار البحوث الجادة في مادة الفلسفة. وليس الغرض من ذلك انشاء تيارات فكرية معينة . بل المقصود فعـلا وعملا هو ايجاد العقلية الفلسفية التي كادت تنعدم مع ظهور نزعـات باطلة في حقل العلوم الفلسفية .

وعلى الرغم من اني اتعرض هنا لموضوع ادبي خالص فقد احس القارىء معي ولا شك بصعوبة تناول هذه الافكار دون اشارة واضحة الى علاقاتها الفلسفية . لقـد صار الادب المعـاصر وثيق الصلـة بالفلسفة . ومعنى ذلك اننا مضطرون الى الالحـاح في تأكيـد نقط الارتكاز الفلسفية التي تساند موضوعات الادب المعاصر . هذا مـن ناحية ، ومن ناحية اخرى لا يمكن الالمام بهذه الارضيات الفلسفية دون وقوف طويل عند معنويـات الفلسفة المعـاصرة المتطورة . وهي صعبة التفسير وصعبة التقريب لانتمائها الى اجواء علمية متقدمة تقدمـا كبيرا على الافكار الساذجة الاولية التي لا يزال يروجها اصحـاب الدراسات الضحلة او الضعيفة في علوم الفلسفة اليوم ببلادنا .

وهكذا اجد نفسي مضطرا الى العودة الى تناول موضوع المشاعر العاطفية مرة اخرى . ولهذا ايضا اشير مرة اخرى الى مـا سبـق التعليق عليه في فقرة الشعور والندم وما ذكرناه بشأن طبيعة الشعور استنادا الى ما جاء في كتاب الاستاذ ألكيبه عن « وحشية الوجود » بهذا الصدد .

يقول الاستاذ ألكيبه ان كل فلسفة هي في الواقـع تفكير في الانفصـال او الانشطار . هـذا التفكير مـائل بوضوح في الاسطورة الافلاطونية عن سقوط الارواح وفي فكرة افلوطين عن مواكب الواحـد الاوحد وفي تأملات ديكارت عن الخلق وعن علاقة النهائي باللانهائي . وهو ماثل ايضا في تدرج انواع المعرفة عند اسبينوزا وفي تفرقة كانت بين الظاهر والباطن أو النومين وفي التعارض الذي أقامه فيشته بين الأنا واللاأنا .

ولا شك في وجود بعض ملامح الانفصال في حياتنـا الفرديـة ذاتها . ولا يمكن ان نفهم الشعور بالحاجة او بالعوز الى الحب اذا أغفلنا انتزاع الطفل من هنائه في بطن أمه كيمـا يولد بغير حول او قوة في هذا العالم . وهو عالم لا يمكنه البقاء فيه حماية او رعاية . ويهبط مع ذلك الى الاستغناء شيئا فشيئا عـن هـذه الحماية وتلك الرعاية . ويصبح الحب الانساني من ثم نوعا من الاعتراض الانساني على القسوة التي بدأ بهـا حياته وتاريخه على الارض .

وليس الانفصال مجرد حدث عرضي بالنسبة الى الشعور او الـى الوعي ولكنه ماهية هذا الشعور او هذا الوعي . وباهمال حقيقـة الانفصال يضيع منا الشعور ذاته . ولكن هذا الانفصال لا يعدو ان يكون احد المشاعر العاطفية . وعلى الرغم من ذلك فهو نفسه ماهية الوعي البشري وليس مجرد حدث عرضي في كيان هذا الوعي . ولذلك فكل انكار للمشاعر العاطفية سيكون انكارا للوعي ذاته .

ملحوظة : نحن نستخـدم كلمتي الوعي والشعور بمعنى الكلمـة الفرنسيـة La Conscience والانجليزيـة Conscionshess والالمانية Bewusstsein ولكننا نخص الجمـع في المشاعر العـاطفية بمعنى الاحاسيس الوجدانية ، اي ان جمع الشعور بالمعنى الفلسفي السـابق المشار اليه لا يكون على مشاعر وانما يكون باضافة كلمـة سابقة تفيد الجمع مثل : انواع الشعور .. او اشكال الشعور . وذلك لان كلمة المشاعر لا تشير بوضوح في الاستخدام اللغوي الفلسفي الـى ما يقصد الفلاسفة اذا استخدموا كلمة الشعور . وهـذا نابع مـن طبيعـة اعتيادنا معـاني الكلمات . فقد استطعنا عزل كلمة الشعور في الفلسفة عن معناها الادبي العادي ولكننا نعجز حتى اليوم تحقيق ذلك فيما يتعلق بجمع هذه الكلمة . ولهذا يلاحظ القارىء انني تحولت الى استخدام كلمة الوعي كمرادفة لكلمة الشعور حينما اجتمعت في الجملة الواحدة كلمتا المشـاعر والشعور حتى لا يضطرب المعنى في ذهـن القـارىء .

فكل تجاهل للمشاعر العاطفية هو تجاهل للشعور ذاته . ولـم يكن اقتران فكرة الذات بفكرة الأنا مجرد مصادفة . وأي محـاولة للنظر الى العاطفيات بوصفها مجرد حالات هي محاولات غير مثمرة وغير مجدية . وتنتج مثل هـذه المحاولات عادة عن نزعات لها طابع التمسك بالحلول العقلية وحدها . وتود هذه النزعات عادة افتراض العاطفيات كما لو كانت حالات عاطفية حتى تتخيلها كأشياء تفترش وتقدم الـى الشعور الذهني . ولو كان الالم شيئا لوجب ان نذهب مذهب الرواقية في اعتبارها مجرد اسم . ولكن يكفي ان نتألم مرة لنعرف خطأ هـذه النظرة . فالألم ليس حالة وليس صفة ضمن الصفات التي نقترحها على طبيعتنا المعرفية . اذ ان الالم لا ينبئنا عـن شيء يتعلق بطبيعـة المؤثر . وسبب ذلك بسيط وهو ان الالم لا يحاول ان يكتشف بـل يشعر ويحكم أي يشعر بما يحكم عليه بأنه مؤذ . فالالم اذن ليس سوى احساس مباشر بالاذى يؤدي الى ايقاظ رد فعل مباشر باتخاذ موقف المدافـع .

اما العاطفيات فتنتمي الى الشعور العاطفي في مقـابل الشعور الذهني حسب التقسيم الذي اقمناه من قبل . ويمكن التعرف بوضوح على ثنائية الشعور الانساني من حيث هو مركز مزدوج للايماءات التي يردنا اليها . فهو يردنا الى مركز معرفـة موضوعية تعد مثـلا اعلى

بالنسبة الى المعرفة العقلية المهتمة بالحقائق غير الشخصية والى مركز الشعور العاطفي بوصفه أنا وجودية حية .

الندم والغريب :

والندم هو احدى العاطفيات وهو يشيع في الخاطر بناء على احتكاك الذات المستمر بالعالم . فالذات لا تنفصل عن العالم والأنا لا تنفصل عن الذات . والأنا هي ما يمكن تعريفه عن طريق مجمل ما تحققه على وجه العالم . ولولا ان الانسان يستعيد من حين الى حين تساؤله عما يمكنه ان ينشئه ويبنيه لاصبحت الأنا سجينة لارتباطها بكل ما تحققه في العالم .

وتتمثل قدرة الانسان في التساؤل عما يتم بناؤه عن طريق الشعور بالندم . فالندم هو ما يعين المرء على التحرر من الاستمرار في قبول نظام معين للاشياء ومن الارتباط ارتباطا كاملا بمنطق الاوضاع الخارجية . ولهذا كان الندم حليف الأنا دائما ابدا لانه ميزان حرية الأنا وعلامة الترابط والخبرة والاستفادة . والانسان لا يستغني عن الندم لانه لا يفقد الاحساس بالحياة متمثلة في الزمن .

فالانسان هو الزمن الذي يعيشه . والزمن هو حياته . وابعاد الزمن التي يعيشها الانسان هي ابعاد القيم التي تحيل الوجود في الزمان الى حقيقة منقسمة متقطعة . والندم هو وسيلة الاحتكاك بالعالم من اجل التحقق عن طريق ما يثيره تأنيب الضمير من ذكريات . وقد يظل تأنيب الضمير متعلقا بمفهومي الخير والشر او ما يولده الاحساس بالاذى والفضيلة . اما الندم فهو احتضان الارادة وتجديد الاستعانة بها امام المواقف . ولما كان ارتباط الندم بالسلوك الفردي قويا لاشتباكه بالارادة صار الندم اقرب الى ميدان الاخلاق والصق به .

والطابع الغالب على كتابات كامو هو طابع النبوة . تشبه لغة كامو أساليب الانبياء . وهو يضفي من ذاته على اسلوبه كل الهالة التي نراها في لغة الانبياء . وتشعر في كلماته بمعنى التمزق وفي عباراته بمعنى المأساة . وشخصية ميرسو التي جعل منها بطلا لروايته « الغريب » تكاد تكون شخصية انجيلية . ميرسو هو صورة المسيح الذي نستحقه(١) كما يشير الى ذلك بيير دى بواديفر . ويقول دى بواديفر ان رواية الغريب(٢) قد فرضت نفسها علينا كظاهرة طبيعية في ربيع قذر وتعيس بباريس اثناء الاحتلال وتساءلنا من ثم اذا ما لم يكن حبنا لها مجرد انعكاس للوحشة التي عشناها والظروف التي مررنا بها في تلك الايام . ولكنه يعود فيقرر انها على العكس من ذلك تحمل طابعها دائما عند كل قراءة وفي كل وقت . اذ انها تحمل ذلك الوضع المحرج الملح نفسه الذي احسسناه واقعا حيا في شاعرنا خلال تلك الايام التعيسة .

ويعتبر أحد النقاد الكبار مثل البيريس رواية « الغريب » جزءا من مرحلة الحسية واللاأخلاقية الاولى التي مر بها كامو . ولا شك أن الحسية واضحة وضوحا شاملا في الغريب . اما اللاأخلاقية فلا موضع لها ازاء الرواية كاملة . والبيريس نفسه هو الذي يقول بصدد قصة الغريب : « لا يبدو الانسان كما لو كان قد خلق ليتلاءم مع الحياة التي خلقت له . وهذه هي الحقيقة المفزعة التي أحس بها ميرسو (بطل الغريب) احساسا غامضا حتى قبل ان تحمل اليه عجلة القضاء والسجن كل الوضوح الكامل » . (١) ولذلك يمكن ان نقول ان ثمة وضعا ميتافيزيقيا واخلاقيا اساسيا يقوم على الندم بشأن طبيعة الحياة والوجود وان كان هذا الوضع نفسه رفضا حادا صارخا للعالم الانساني .

رواية الغريب :

وهكذا ترسم رواية الغريب صورتين من صور الندم . الاولى هي الصورة الاصيلة التي تتخلل العمل بأكمله كاحساس عام . والثانية هي التي تتشكل من طبيعة البناء الروائي عندما يصل ميرسو الى الوضوح النهائي في السجن والاعدام . وبطل الرواية ميرسو هو شخص لم يصب فلاحا في الحياة ولم يكن موفقا . ويمثل المثقف الفاشل الذي يقوم بعمل وظيفي عادي . ويتلقى برقية بوفاة أمه وهو لا يدري ما اذا كانت قد ماتت بالامس ام اليوم . لقد بعث الملجأ الذي كانت تعيش فيه أمه برقية بخبر الوفاة الى الابن فيسرع الى حضور دفنها ولكنه لا يجد اثرا للدموع في عينيه .

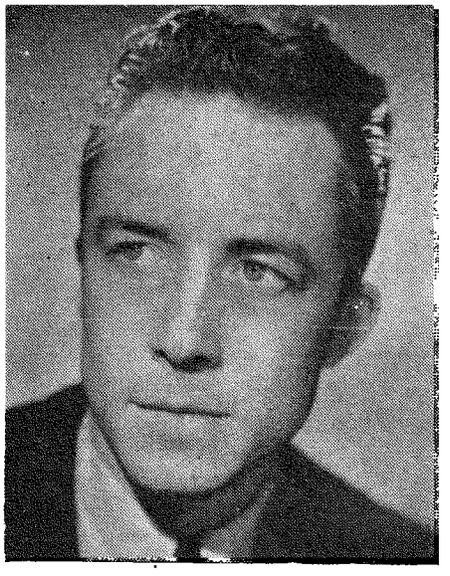

البير كامو

ثم يعيش حياة عادية فيصحب عشيقته الى البحر من حين الى حين ويألف الحياة معها دون ان يكون في الواقع مغرما بها . وتسأله ما اذا كان يريد الزواج منها فيجيب بأنه لا مانع لديه من الزواج . فتسأله ما اذا كان يحبها فعلا ؟ فيجيب بأن هذا لا اهمية له ولكنه على استعداد لان يتزوجها ولو انه لا يحبها .

ويتخذ ميرسو بعد ذلك صديقا اسمه ريمون . وتسوقه الظروف يوما الى أن يصحب صديقه فيقع هذا الصديق في اشكال مع بعض الاعراب بسبب امور نسائية . واذا بميرسو يورط نفسه في المشاجرة والصفة يضغط على زناد مسدس يحمله خصوم صديقه فيقتل احدهم دون ان يتبين لذلك سببا .

وهنا يقتادونه الى السجن والى المحاكمة ، ولا يد له في الامر . ولا يشعر باعجاب نحو ما حدث له . ويدافع عن نفسه دفاعا فاشلا . وتوالت الاحداث في طريقة آلية تلقائية دون ان يملك تغيير شيء مما جرى . ولا يحس بأنه ارتكب جريمة عن قصد . وبدلا من أن يستشعر نوعا من القلق احس على العكس باستغراب قاتم حزين .

وهو حقا غريب في هذا العالم حيث لم يكن هناك ما يهمه او يتعلق به قط سوى حمامات الحر وليالي الجزائر الرقيقة ومعاشرة خليلته . ولا يكاد أحد يطلع على قصة حياته حتى يتبين ان سلوكه سلوك مجرم فعلا . فهو لم يكن يحب أمه وقلبه قاس فيما يتعلق بوفاتها . ثم امتدت قسوته فقتل رجلا في حكاية تثير حولها كثيرا من الشبهات . ولذلك لم يكد القضاة ينظرون في أمره حتى حكموا عليه بالاعدام .

في هذه اللحظة بالذات يستيقظ ميرسو . ويحس بالحب العميق للشيء الوحيد الذي يملكه وهو حياته . فيثور اثناء فترة

---

(١) بيير بواديفر : التحول الادبي (حـ ٢) ص ٢٨١ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٨٠ .

(١) رينه ـ ماريي البيريس : ثورة كتاب اليوم (ص ٦٨) .

الانتظار للاعدام داخل السجن . ويحس بالندم ويود لو كان قادرا على أن يغير شيئا من الواقع الذي يحيط به ... يود لو انه تحكم في قوانين الوجود والاحياء والاشياء حتى يغير من واقعه وظروفه . ويتمنى لو كان يستطيع ان يرى حياته شيئا اخر بعيدا عن حقيقة الموت التي صارت بالنسبة اليه حقيقة اولى ووحيدة .

ولكن ندمه يصطدم بالزمن . ولا بد من استعادة الزمن حتى يملك المرء اتيان تصرف مختلف والتأثير على الحوادث من اجل تغييرها وتبديلها . وهو عاجز تماما عن ان يخرج على اطار كل ما يدور حوله من الاوضاع والظروف .

ثم يرسلون اليه القسيس كي ينقذ روحه فيثور ثورة جزع قوي ويشعر بأن عليه ابلاغ القسيس بأقدس الحقائق التي تهم البشرية كي تستطيع الخلاص وتسرع بالتعرف على ضوء ما يقوله لها حتى تضمن حياتها الثمينة وتعرف قيمة الاستفادة من هذا المعاش الانساني الغالي . وينبيء القسيس بأن الله لا وجود له وأنه لا يوجد معاش اخر سوى هذا المعاش الارضي . هذه الحقائق البسيطة لم يستطع احد ان يقولها وكان لا بد ان يواجه الموت كي يملك الشجاعة الكافية لاصلاح الناس وانذارهم بالخديعة الكبيرة التي يعيشونها .

هذا السلوك الايجابي وليد الندم . الندم هو الاحساس الواعي بأن ثمة عملا اخر كان يمكن ان يعمل في هذا الظرف او ذاك . وهذا الاحساس الواعي هو نوع من الزاد الشعوري ازاء الاحداث . وهو ايضا نوع من التمعن في كل ما تقدمه الحياة من فرص وضرب من التذكر لكل ما يرجو المرء ان يستعيد النظر فيه . ويبدو لكل منا انه سيتخذ الاجراء الصحيح او الاكثر صحة امام الفرص التي تعطيها لنا الظروف والاحوال لو تكررت على نحو ما جرت من قبل .

ويحس المرء عادة بأن الزمن لم يمهله في اختيار ما يقع عليه اختياره من انواع السلوك . ويحس ايضا بأن الوجود والاشياء الخارجية والاحداث الجارية تذوب بين اصابعه كالثلج دون ان يكون له القياد المطلق لامورها . والتجربة لا تتم الا مرة واحدة . وظروف الحياة لا تمنح الفرصة مرتين . وحين يحتكم المرء الى واقعه الحاضر يشعر بأن وجوده كان يمكن ان يكون على غير ما هو عليه لو انه أتى من التصرفات ما يخالف ما اتاه بالفعل في هذه الاحوال او في تلك . ومن هنا يتولد احساس دفين بالندم . ويرتبط هذا الندم بالأنا ارتباطا كاملا حتى يعود من حين الى حين فيعاود مراودة خيالها . ولو كان الزمن مواتيا لاستعادة الظروف لكان ثمة احتمال في تصريف التعقدات وتحويل دفة الامور واختيار وضع انسب .

ومهما تكن عرضية الحياة ومهما تكن ظروف الشعور بتفاهة الاحداث الجارية فلا يلبث المرء ان يكتشف ضرورة الاصطدام بحقائق الواقع الماثل . ولا تلبث الامور ان تمضي مع الزمن ومع التسلل المنطقي لتطورات الحياة فاذا بها تنعقد واذا به يكتشف ان العرضية وعدم الاهمية التي يستشعرها المرء في قرارة نفسه لا تجدي فتيلا امام الترابطات الماثلة بالفعل . ومن هنا تدب في قلبه اليقظة ويكتشف ضرورة ان يقاوم وان يفنى وهو واع مدرك يبذل قصارى جهوده من اجل ان ينازل طبيعة العدم والفناء المتغلغلة في قلب المعاش الانساني .

وعندئذ فقط يهب ليقول الحقيقة ويهمه ان يقولها .

– يتبع –

القاهرة

عبد الفتاح الديدي

صدر حديثا

للكاتب الانكليزي الشهير

كولن ويلسون

ضياع في سوهو

ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق

رواية رائعة صور فيها مؤلف ((اللامنتمي))تجربة نابضة بالحياة قام بها شاب بين غرباء الاطوار والفنانين في احد احياء لندن الشهيرة ، بلهجة جديدةهي سر ابداع الكاتب الذي تترجم آثاره الى جميع لغات العالم .

وقد حصلت ((دار الاداب)) على حقوق ترجمةهذه الاثار الى اللغة العربية ، وستقدم بعد هذهالرواية عددا من كتبه الجديدة التي صدر بعضها ولم يصدرالبعض الاخر باللغة الانكليزية .

الثمن ٤ ليرات لبنانية .

منشورات دار الآداب